

التي فاز اجدادهم فيها بشهرة مستنيزة فلا شك أنهم اذا تطاها زاحموا فيها من
سواعم يراعتهم وجودة عملهم ان شاء الله

الخلق والمشيئة

للدكتور جيب افندي الدرعمي

وأينا ان نتقل لقراء المشرق فصلاً موضوعه الخلق والمشيئة من كتاب حديث
السيو بول دومر دئيس مجلس نواب فرنسا سابقاً ساء « كتاب اولادي »
أما الكتاب فغني عن الوصف بما حازه من الشهرة في عالم المطبوعات فلم تبق
جريدة إلا وتذنته واما النصل الذي انتخبناه فتي سرده مثال عما جاء في هذا السفر
الجليل من النصائح الاجتماعية السامية وفي موضوعه امثولة يجدر بالمرء تعلمها ويسهل عليه
تسريبها اذ يستشرف من خلالها ان المؤلف يتكلم عن اختيار وحكمة وخير نصيح من
كان متصفاً بالجايا التي يأمر بها وبيداً عن المايب التي يصرف غيره عنها ولا قول
انجع في قلب الانسان من قول يقرئه صاحبه بسمل . ومؤلف كتاب اولادي ممن عرفوا
بقوة المشيئة وثبات العزيمة وبهما ارتفع من حضيض الفقر الى ذروة المجد
ويجدر بنا قبل نقل كلام دومر ان نأتي بشيء من الخلق في حده وتعيينه فنقول :
ان النفس البشرية بسيطة في تركيبها غير ان لها صفات وحالات تختلف باختلاف
الاشخاص . وهي كصفات نسائية مبنية على قوة الفكر وقوة الاجسام وقوة العمل
وتكون هذه القوى متفاوتة في درجتها متباينة في تصويب عزمها وقد تكون في
الاحداث استعدادات خلقية محتصة به غير انها تنمو وترتقي تبعاً للوسط والاحوال
الحياة او بمجرد اميال ذلك الولد وقوة مشيئته وهي تختلف بانكم والكيف .
فترد من مجموع تلك الاختلافات الناتجة من الاستعداد الفطري او الميل او المادة

ما يُعبّر عنه بالخلق أو الطبع . والطبع شبه بطابع يمثل خواص الشخص الأدبية فيستازيه عن اقترانه وقوامه وجود استعدادات غريزية تكون في الانسان تسوق به الى العمل وينقاد اليها غالباً بحيث انك لو عرفت خلق رجل ادركت سلفاً كيف يتصرف في ظروف معلومة

وقد يكون بين هذه الاستعدادات وراثية كانت او مكتسبة سمات شخصية يُعرف بها الانسان وتختلف البصائر بيروزها ووضوحها كافي بها ملامح الاخلاق تدعى بالخلال او بالملكات وتتسلط على صاحبها . ويقسم البعض اصحاب الاخلاق الى ثلثة اقسام : الاخلاق المتعقبة والاخلاق المنتقدة الى الاهواء . والاخلاق الأمارة . وذلك حسباً يناب على الخلق حكم العقل او حكم المحسوسات او حكم المشيئة . وان اعتبرنا العقل النظري فعلاقته مع الخلق ضعيفة فانتنا نرى ان المعارف المكتسبة لا تؤثر في الانسان تأثيراً يذكر ما لم يكن اعتاد ان يحكمهم في سلوكه العقل العملي فينقاد الى مبادئه والى نواحي الفهم . وعلى خلاف ذلك الاحساسات والعواطف فان عملها في الخلق قوي شديد . وهذه الاحساسات والعواطف مرتبطة بالمشيئة ارتباطاً وثيقاً فان كانت المشيئة ضعيفة غلبت الاهواء . والاحساسات وان كانت شديدة تابعة لرأي العقل ولحكم الصواب ضبطت عنان العواطف والاحساسات واستعانت بها لادراك غايتها بعزمها وثباتها وهذا الامر أضحى في غاية الوضوح حتى ان الخلق او الطبع صار مرادفاً في المعنى للزيمة وقوة الارادة وذلك في لغة الشعوب الراقية التي اهتمت في تهذيب اخلاقها . فاذا قيل بالافرنسية فلان صاحب طبع او فلان شديد الخلق يكون المراد من هذا التعبير انه صاحب عزم وثبات ورباطة جاش

وقد تكون رباطة الجاش مضرة اذا لم تلتظنها الشفقة ويعضدها الانصاف غير انها خلقة كريمة ومزية طيبة لان الزيمة والارادة هما اساس القوة الادبية والشرط الاول لوجودها . ومن المعلوم ان المشيئة القوية تسمى من طبيعتها وراء الاعمال الخطيرة وبضد ذلك الرجل الصغير النفس الضعيف الحزم فلا تتم مقاصده ولا تقوم عزائمه بل يكون دائماً متردداً حائزاً وعليه يصدق قول القائل : اقبح الطباع حيث لا طباع . واليك الان اقوال دوسر في هذا الباب

« تعلم كيف تريد واعمل التوجب عليك . تلك خلاصة شتات القواعد التي يُتَّخَذُ نشرها لتدبير المعيشة . اعلم ما يتوجب عليك ولكن في كل أمر وفي كل آن رجل الراجب تلك رأس الرصايا والحطّة الادبّية التي ينبغي السير عليها . غير ان الرغبة في القيام بتتخذي تلك الوصية لا تكفي ان لم يكن المرء متحفزاً للعمل . ومن ثمّ عليه ان يدرع بالمشينة والزيمة ويقبض على قياد نفسه بيده وهذه هي نقطة الإشكال واذ ذلك فعلى الشاب المرشح لاحتمال انتقال الوجود والقيام باعباء ما سيلقيه على كاهله من المسؤوليات ان يردد على نفسه وأمر عليها ويحكم فيها ويتسلط التساط المطلق على حركاته وسكناته

من كان مائلاً نفسه امكنه ان يكون رجل خير وصلاح ومن كان قائداً لحياته امكنه ان يجامها سعيدة . ولكن كيف السبيل الى امتلاك النفس على الدوام وهو امرٌ يكون في البدن صعب المراس وتستدعي ممارستها جهداً جيداً ؟ كيف تصد النفس الامارة او كيف تقاوم الدواعي والبواعث التي تحمق بالانسان ؟ كيف تظفر بتلك الاميال التي توذي بالعقل الى الحمول او كيف تقوى على الاهواء الطبيعية وقد يئذ للانسان اتباعها وتنوؤ رغائبها اذا لم يقدر سوء عقابها ؟ الجواب ان ذلك يتم بترويض المشينة وترويضها فيصبح سهلاً بديحاً

يمثل لنا الشاعر كورنيل في رواية « سنأ » قيصر الروماني تجناه زمرة ندمانه بعد ان اساووا اليه الصنع فاذا به يرد حنقه ويردع غيظه ويلوي رغبته عن اخذ النار حتى تتكّن من نفسه في كبح ثوران تلك الاهواء واطلاق العنان لمواقف القلب ومواعظ العقل . نعم ان مثل هذا الصراع كان لا يرب عتيفاً الا ان القيصر خرج منه ظافراً واخذ يناخر بانه غلب على العالم وعلى نفسه حيث انشد :

غلبتُ الكون طراً مثل نفسي فهذي رغبتى وكذا مقامي

ولكن لا يدري معنى هذا الصراع النفسي من كان اسير اهوائه لا عزم له ولا سطوة على نفسه بل اذا اعترضته الاهواء يتبعها واذا جذبت الشهوات مها كانت خفيفة تزل قدمه على منحدرها ويروي في مهاويها بلا مقاومة ولا دفاع اما هذه الخال التي شيدناها في هذا القيصر فهي من الاحوال التي تحدث كثيراً في صفاثر الامرد وكبائرها لكل الاشخاص الذين ليسوا بالعوبة عجماء بين يدي شهواتهم

ومن هؤلاء كثيرون من يضطرون للكفاح مع انفسهم فيكون كفاحهم شديداً قلماً يخرجون منه فائزين اما رجل العزيمة الذي ألف الامر على نفسه فانه ينال الفوز العاجل السهل ومع مرور الزمان وانتلاف هذه المادة الحسنة يفضي به الامر بلا مراعاة الى تقرير ساطة العقل والحكم على نفسه . قال الفيلسوف نيكما : ان شئت ان تصير رئيساً على غيرك دع العقل يتسلط عليك . او بعبارة اخرى مترجمة بلسان العصر افضل انسان لتدبير اقاربه من كان متسلطاً على نفسه كل التسلط وكان العقل ولي اعماله . فينتج مما تقدم ان الشرط في السيادة هو نفس ما اشتغلنا لاستجماع الصلاح والسعادة

انلا يجدر بنا بعد ذلك ان نقوى على اتقنا لاستيفاء هذا الشرط ونضعي في مدة الشباب كثيراً من اللذات الدنية حتى توصل الى امتلاك اتقنا اي تدليلها بقوة المشيئة لحكم العقل ؟

وصف الفلاسفة المشيئة قوة رئيسية في الانسان لانها في مقامها وقدرها الأ عقل الذي يحكم على الافكار . ودون العقل والمشية الاحساس الذي يرأس على الشواعر والمواطف والشهوات . وليس فقط الفلسفة بل الحس العام يرانق الفلسفة على جعل مشيئة الانسان في مقدمة القوى العقلية والصفات الانسانية الجديرة ان تسمى كذلك

ولا غرو ان المشيئة العامة اذا ثابتت على عملها تقدر على كل شيء . في الدائرة الادبية كما انها تتال كثيراً في دائرة الماديات

صاحب هذه القوة وحده يكون في الحقيقة طوع نفسه وولي ارانته واعماله . يدير افكاره واحساساته حتى مخيلته ايضاً وينذل كل ما له لسلطة العقل فيأتمر بأمره ويزدجر بزجره حسب اياز الضير ويصبح اهلاً لتدبير معيشته بتقتضى قوانين الحكمة بفعل العزم الثابت يقوى الانسان على تجنب الحارم وكبح الاميال المنحرفة وما تنطوي عليه من الشرور والاختار اذ لا يعدل الا الى المساعي الكريمة الشريفة ويعرض عن المهوى بلا تردد لان المهوى ابن الضعف ولا يصيغ الى العواطف الأ فيما لا يياكس الواجب

من رام ان يكون رجلاً صالحاً وصاحب فضل اكيد عليه بزم من حديد ومن

حصل على مثل هذه الإرادة أتيح له ان يطمح بانظاره الى الكمال ايا كان مزاجه
ومهما كانت امياله

لا بد لنا في ما جريات الحياة ولدى القيام بالاعمال العديدة التي نعملها كل يوم من
قوانين وقواعد راسخة في عقولنا لكي نطبق تلك الاعمال عليها بلا نظر او تردد فيها
بل بمجرد انتباه المشيئة وشارتها . واهمية ذلك معلومة لا حاجة لايضاها لان مدار
معيشتنا على هذه الاعمال اليرمية بل هي كلغمة بردها . مثال ذلك : يعلم الانسان
اضرار المسكرات واطار التدخين فيترك هذا ويتلع عن تلك

ان الدواعي والمصاعب التي تحول دون مقاصدك النيرة لكثيرة وعديدة فينبغي
لمشيتك ان تدفعها بمزم شديد بحيث انك اذا روضتها كل يوم في هذه الصغائر يمكنك
استخدامها بشرة عند ما تعترضك كباثر الامور

وليس هذا فقط بل حتى في الاعمال التافهة يبغي لك ان تقاوم رغبة النفس فيها وان
تكن تلك الرغبة الى شي . جاتر حلال . دونك لذلك مثلاً فاقترض . انك رجل عظم او
صاحب قلم منكباً بكل اجتهاد على شغلك . وانت تعلم اي فائدة من الرياضة للصحة
واعتدال البدن . فبعد ان تكون قضيت سحابة يوم كامل في عمل متعب واشغلت
افكارك واجيدت عقلك تشعر بحاجة للراحة فيتجاذبك داعيان اما التعود في مخدعك
مرتاحاً او الذهاب الى اجتماع او لمر ليس منه كبير نفع له . فاندن ربنا
ترتاح الى داعي اللهو لما فيه من اللذة مع ما فيه من الاجفاف في قانون الصحة والدراية
فان كنت رجل عزم ومشيئة تهز عطفك او تشد حيلك كما تقول المأمة وتحكم
بافضلية ترويض جسك وايضا حنة من الحركة فتكون اذ ذلك اتيت بعدل مفيد
لبدنيك وعقلك معاً

ذلك عمل من لبن الإرادة سهل بسيط له قيمة في ذاته بما يجديده من النفع وقد
يكون نفعه الاكبر من ترويض المر . لمشيئة واعداد هذه القوة لاقتحام الاعمال الخطيرة
والوقوف امام معضلات الايام وقفة المصارف كيف يكون العزم والاعتدال على النفس
ساعة لا تأتي النتائج الا بالإرادة الشديدة والثبات ورسوخ القدم
ولما كانت هذه القوة الحية اي الإرادة تؤدي حتماً الى حسن المصير في كل امر
من امور الحياة على انفراد فنها يعلم مقدار مفاعيلها على حياة الانسان بكاملها اذا

دام فيها فعلمها واستمرّ عملها - وقد يمكن القول بان الرجل الذي فاز بقوة المشينة يساعد نفسه على استجلاب حظه في الحياة وعلى عكس ذلك الرجل الضيف المشينة فانه يقصر عن قهر نفسه للوصول الى تلك الامنية وان كان ذكي العقل كبير القهر بل يكون العربة الحدثان يجري في الحياة كركب بلا دفة على بحر عجاج يسالك على غير نهج حيثما يدفعه التيار وتنفع فيه الارياح فتبتلع الامواج او هو :

كربشة في سبب الريح طائفة لا تنتقر على حال من القلق

ان الرجال الجبناء الخالين من العزم عددهم قليل لحسن الحظ اما الاشداء منهم واصحاب الحزم والمزينة في الاعتماد والعمل فعددهم اقل جداً لسوء الطالع . ومعظم الناس واهل المزينة متقلبون بين الامرين ولو تألموا كيف يريدون لكانوا اشد واثبت ان التردد والتقلب داء ان يمتريان المرء ثم يستحيلان الى شلل يصيب المشينة وهما في بعض المواقف من العائب التي تجر الويل والبلاء . واذا كان مثل هذا الميب في صاحب الامر لأدى به الى وقوع الرزايا . واهم مزينة تزين من تتعد الرناسة هي قوة الاعتماد على النفس ونما تقدم يلوح جلياً ان معرفة العزم وفن الحزم ضروريان في معيشة الشعوب ومعيشة الافراد

*

اما مقدرة المشينة الشديدة فلنا في التاريخ الف شاهد يؤيدها ويبرهن عليها وما من سياسي او قائد عظيم الا تراه حازماً عنيداً قوياً الارادة . واليكم شاهداً بين الف : ان نابوليون بالرغم عما كان متصفاً به من قوة العزم وبعد شرطه في الفنون الحربية لما ضعف وهن وصادمه القائدان بلوشر وولكنتن بعزيمة ومضاء تحطم وانكسر فلو كان بدا من هذين القائدين او من احدهما بعض الضعف في عزمهم او وهنت ارادتهم لكان نصر « واترلو » معقوداً بلوا الجيش الفرنسي . وليس قولنا محض افتراض عتي بل هي الحقيقة بنفها . وذلك انه لما حملت عساكرنا على صفوف الانكليز المربعة اخذت تتراجع حتى كادت تذهب شذر مذر لو لم يعضدها « دوك الحديد » بمجرد قوة مشينته فتبها مكانها الى السماء واذا ذلك ظهر بلوشر ومل . فنه العزم على الكفاح وفيه الرغبة بالفوز بعد ان قهره نابوليون مراراً وهزمته الفرسان الفرنسيون في « ليني » وفكتت به فصار

الى مواقع «واترلو» حيث كانت تدعوه الآمال الطيبة و حار ما حار فسقط ذلك البطل مدحوراً بقوة الخزم وثبات العزم الذي فتح في صدور اخصامه
وتوجد شواهد عظيمة في غير هذا المعنى ومنها ما هو مشهور كما جاء عن الفيلسوف زينون انه كان يشرح لتلاميذه قضية من مذهب الفيلسفة الزينونية مآلها ان الألم ليس بشيء. وبينما هو يقول ذلك فاجأته نوبة ألم قريسي فلم يعبأ بها بل شدّد عزمه وغلب الرجوع. واخبر الشاعر غوته عن نفسه قال: انه فشا في جوارحي ربا. حتى عشيّة وكنت مريضاً للعدوى فاعلمت قوة مشيتي قفزت بنفسي من المرض

ان المشينة اذا راصلت عملها في الانسان تحت قيادة العقل فبلغت مبلغ ارتقاها وانتشارها فيه يكون منها الخلق او الطبع - فصاحب الطبع هو صاحب المشينة والنيات والنشاط وهو في الوقت نفسه احسن واتق واندر من رُجد في الهمة الاجتماعية واعلم ان ما يقال عن محاسن المشينة يُطلق بأدلى حجة على الطبع وللطبع يد في عمل الخير والحصول على الفضل كما له اليد الطولى في الوصول الى الحظ والسعادة بالطبع يهذب الانسان نفسه آداباً وفضلاً ويحفظ حياته نهباً تدير عليه وله ذات الامة في كلا المملين الادبي والادبي

صاحب الخلق يرتفع عقلاً ويتجمل ويتكامل بملازمة الخير اذ انه يوجد فرق بين الطريقين اللذين يفتتحان امامنا طريق الخير وطريق الشر . اما طريق الشر فسهل ساو كما لانها على منحدر يدفع بنا ويكفي ان نسوق اقدامنا عليه لنهبط في الهاوية عاجلاً. اما طريق الخير فوعرة المسلك لانه ينبغي لتابعة السير فيها عزم مستديم ومشيئة ثابتة ووجود انكلام لا بُد من خلق تتخلق به وبه تتحلّى

ان الجذب في تحسين الحال والكمال والسعي وراء الحصال الحسنة والنضائل يستلزم عملاً متواصلًا يتجدد في كل يوم ومثله الاعتناء باستئصال المايب ومقاومة النقائص والتحرّث من الاميال السيئة. والتسلط على الشهوات . ومن وراء ذلك نفع حقيقي هو النفع الحصري

على انه ينبغي لنا ان ننفع الغير ايضاً اديباً ومادياً بالتصانح والامثال والعسل والمقال والرجل صاحب الخلق الثابت لا شيء يلوّيه عن هذه الهمة الشريفة الجميلة اي نفع الغير بل يقوم باعبائها بكل تأنر وذمة مستتيراً بالعقل ومستشداً بالمشينة .

وعليه ان ينحصر ضيقه ويمتنع اعماله كما كان يعمل ذلك الملك النيدوف ويقول :
 اذا مر بي يوم ولم اتخذ يداً ولم استند علماً فما ذلك من عمري
 وكذلك ليس من عمرك يوم يفوت ولم تعمل به الخير للقريب او تحتس منه
 ساعات للتأمل لان في التأمل تجدد العزم في تراخ الحياة وفي هذا التراجع التحتم علينا
 يكون الفوز والنجاح لرجل العزم فغزيمته سلاح له يفيد ويضد ذويه وبه يعظم ويرتفع
 ويثبت كل امانيه

ثم ان الطبع يساعد المرء على التقدم والسعادة اكثر مما يفعل النهم والمال . فمن رام
 ان ينجح في هذه الحياة وكان اهلاً لذلك فادع له بطبعه رزين والبقية تأتيه عفواً
 على ان الرجل الحاصل على احسن المزايا البدنية لا يلبث ان يرى خموداً في عضلاته
 وهماً في جسده اذا اهمل الرياضة والتسرين فكم بالحري يكون ذلك في القوي
 الادبية وان اهملنا تهذيب اخلاقنا في أيام الشباب فاي متى يكون اهتمامنا في طبعنا .
 فقد حان الوقت للشبان الذين اخاطبهم ان يقوموا بتهديب اخلاقهم وانما ادبيات
 ذاتهم واليهم اقول : اذا اعتمدت على بلوغ هذه الغاية فاذكر الكلام الذي صدرت به
 هذه المقالة : تعلم ان تريد

(المشرق) ان الفصل السابق الذي نقله جناب الدكتور التاطسي حبيب افندي الدرعويني
 من كتاب دوسر في المخلق والمشيئة جدير بالاعتبار اذ يلم الانسان كيف يشدد عزيمته ويحمل
 نفسه طرع مشيئة ليحملها الى مكارم الاخلاق ويمارس السجايا . ولا تأخذ على المسود دوسر سوى
 اضرايه عن اقوى الوسائل فعلاً واشد ما قرأ للشيشة النافرة واللاهواء النابية ألا وهي القضية المنيئة
 على روح الدين وتفق انه لا ننكر تلك القوة اذا استسكنت في المرء تسطيع في امور
 كثيرة ان تتكبد عن الدنيا وتلتزم الواجب ألا ان هذه الهمة هيا كانت عالية شريفة ان لم
 تلق لها سداً متيناً لا تلبث ان تخور وتفشل وليس من سدد عين غير الدين ونمته تعالى الذي
 باوامره وزواجره وبما يتوعد به المرء من العقاب او ما يمدد من الثواب يمله كانياً للالزمة القضية
 ويقويه على ملذات السلم ويثبي به عن الشهوات البدنية لا يل يمله على تجشم الاتاب والواجب
 كلها وعلى احتمال الموت ومقاساة المذابح بل الرضى وبطيب القلب حباً بالآخرة وبالمواعيد
 الخلدية التي يثبت له الدين مع صوته ضيقه وصحتها وحقيقتها وجودها وكل من ضعف فيه
 هذه الدوافع هو على شفا الهلاك يتضضع قريباً ركنه لا بحالة . ومن ثم ينبغي على اصحاب
 الاسر ان يمزوا في بلادهم وروح الدين ويشدوا ازده في القوم وخصوصاً في الاحداث فلولا
 لفسدت الهيئة الاجتماعية كما يلوح من تاريخ جميع الامم القديمة والحديثة ل . ش